الجزء الثالث

وهل ينهض الإسلام بلا حكومة؟؟

إن الإسلام لا بد له من حكومة تقيمه وترعاه وتحميه. فالحكومة الإسلامية ضرورة من أجل حفظ العقيدة وحمايتها من عبث العابثين ولهو اللاهين، وخروج المارقين، وزندقة الزنادقة وشُبّه الكافرين، وإقامة حكم الردّة على المرتدين طبقا لحديث رسول الله صل ى الله عليه وسلم الذي أخرجه البخاري: «**من بدل دينه فاقتلوه**» والقتل يحتاج إلى حكومة في الأوضاع العادية.

والحكومة ضرورية من أجل إقامة العبادات: فالكسالى عن الصلاة يؤدبون، والممتنعون عن الزكاة يعزّرون، وتاركوا للصيام يعاقبون، والمقصرون عن الحج وهو باستطاعتهم يزجرون فلابد للمجتمع الإسلامي من حكومة تحافظ على الأرواح والأعراض وتقيم القصاص والعدل بين الأفراد والجماعات وتحث الناس على الجهاد النبيل... ورحم الله الإمام اللقاني حين يشير إلى هذا الواجب العظيم في جوهرته فيقول:

وواجب نصب إمام عدل بالشرع فاعلم لا بحكم العقل

ومن الوجوه الدالة على وجوبه بالشرع: أن الشارع أمر بإقامة الحدود وسد الثغور وتجهيز الجيوش وذلك لا يتم إلا بإمام تبايعه الرعية يرجعون إليه في أمورهم. فطاعة الأمير من طاعة الله ورسوله ولا يطاع إلا فيما يرضي الله ورسوله لأنه لا طاعة لمخلوق فيما معصية الخالق. قال تعالى:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ.** ﴾(سورة النساء/ 59).

وفي الصحيحين من حديث الأعمش:" **إنما الطاعة في المعروف** " وفيهما من حديث يحي القطان:" **السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة** ". وأخرج مسلم من حديث أم الحصين: " **ولو أستعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله، اسمعوا وأطيعوا** ". بهذا يجعل الإسلام كل فردا أمينا على شريعة الله وسنة رسوله الله صلى الله عليه وسلم وأمينا على إيمانه هو ودينه، وأمينا على نفسه وعقله وأمينا على مصيره في الدنيا والآخرة ولا يجعله بهيمة في القطيع، تزجر من هنا أو من هنا، فتسمع وتطيع. فالمنهج

واضح وحدود الطاعة واضحة. قال عليه الصلاة والسلام: «**من أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني**». لكنه لا يطاع في الحرام ولا في المكروه وأما في المباح فيطاع وجوبا إن كان في أمره مصلحة عامة للمسلمين. وأما إذا أمر بالكفر فيجب على كل مسلم أن يطرح بيعته جهرا إن أمكن وإلا سرا. فبغير هذا الكفر من جميع المعاصي لا يجوز خلعه عن الإمامة لا جهرا ولا سرا. لأن في خلعه لأدنى سبب مساسا بوحدة الأمة وإيقاد نيران الفتنة والعداوة بين المسلمين. لئن يحكم الأمة الإسلامية جائر خير لها من أن لا يحكمها أحد... فبالإمام تهاب وبدونه تهان...

إن الحكومة الإسلامية ضرورية لإقامة ما يلزم المسلمين من علوم وتربية المسلمين على الإسلام وإقامة كل أنظمة الإسلام السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والأخلاقية والثقافية. فالمسلمون لا يطمئنون ما لم تكن لهم حكومة مسلمة وغير المسلمين كذلك لا يؤمنون على حرية العقيدة، ولا على عدل ولا قانون ولا حق ولا مصلحة. فالمسلم في ظل حكومة غير إسلامية معرض إسلامه للخطر ومضطر للطاعة حتى في معصية الله، وفي ذلك تناقض كبير بين العقيدة الإسلامية والسلوك، عدا عن كون ذلك ذلة لا تليق بالمسلم ولا تجوز عليه، إذا جعل الله عز وجل المسلم هو الأعلى قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾(سورة المنافقون/ 08) وقال أيضا: ﴿ **وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾(آل عمران/ 139) وعندما تكون الحكومة التي تحكم المسلم غير مسلمة فإن في ذلك ذلة له وصغارا وأعلم أن للتقدم البشري مظهران:

أولا: التقدم في زيادة تسخير الكون لصالح الإنسان

وثانيا: تقدم الإنسان في مجالات الأخلاق والسلوك والاستقرار والاطمئنان والعدل، ومعرفة الحقوق والقيام بها. ومعرفة الواجبات وقيامها قد تتقدم البشرية بدون الإسلام وتزدهر في الماديات ازدهارا يقضي غالبا بحياة أبنائها ولكنها بدونه تفقد كل أمن وكل الاستقرار.... بحيث ترجع في تصرفاتها إلى عهود الهمجية الأولى والجاهلية الأولى حيث لا حرية إلا حرية الاستعباد ولا عدل إلا عدل الاستغلال ولا قانون إلا قانون الغاب ولابد من رجال انتصروا في معركة الضمير عقيدة وفي معركة الميدان سلوكا إذا أريد للبشرية سعادة الدنيا والآخرة، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه رجال لا يخافون في الله لومة لائم، رجال يحبون الإسلام ويحبهم، نعم الإسلام الصحيح لا إسلام الشعارات والعناوين أو إسلام الذين يهرفون بما لا يعرفون ويقولون ما لا يفعلون.

إن الحكومة الإسلامية ضرورية لتبليغ رسالة الإسلام العالمية وإخضاع البشر لسلطان الله وشريعته بلا إكراه على تغير العقيدة كي يتمتع الإنسان والحيوان على السواء برحمة الإسلام، ويتخلص الإنسان بذلك من ظلم الإنسان إذ لا يحقق العدل الكامل إلا شريعة الله. فكل قانون وضع على غير شرع الله ظلم في نفسه والحكم به أدهى وأمر... لأنه بدون شريعة الله يتحكم فرد من أمة في أمة أو تظلم طبقة طبقة بتناوب، وفي كل صورة من صور الحكم تغيب فيها صورة الحكومة الإسلامية وحقيقتها يكون تعبيدُ الإنسان للإنسان حتى في أكثر النظم ديمقراطية، بمثابة حجر أساس لبناء نفق الحضارة الوحشية البهيمية فبلا حكومة إسلامية تكون عرى الإسلام في حالة نقض. وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**تنقض عرى الإسلام عروة عروة فأولها نقضا الحكم وآخرها الصلاة**». وما نقضت بقية عرى الإسلام إلا بعد أن نقضت العروة الأولى.

وما دامت هذه كلها من الواجبات ولا تتم إلا بقيام الحكومة الإسلامية، فقد أصبح قيام حكومة الإسلام فرضا لأن ما لا يتم الواجب إلا به واجب والعمل من أجلها فريضة عينية على كل مسلم يهتم بمصير أمته المجيدة.

ولا ننسى أن الأصل في تربية المسلم أنها جماعية، والأصل في أخلاقيته القدرة على التلاؤم مع الجماعة، والأصل في الحياة الإسلامية أنها حياة جماعية إلا في حالات استثنائية ضيقة. فعل المسلمين إذا أن يكونوا يدا واحدة وجماعة واحدة وصفا واحدا وأن يتحركوا حركة واحدة من أجل إقامة الإسلام وتحقيق أهدافه الكبرى... فتحقق على أرض الواقع التربية الإسلامية الجماعية في ظل الحكومة الإسلامية. فالبلد المسلم الذي ينفرد ويخرج عن دائرة الأقطار الإسلامية ليطبق بزعمه شريعة الله في حدوده، يعرض أبنائه للفناء والاضمحلال على يد أعدائه شأنه شأن الشاة القاصية التي ترغب عن حماية راعي القطيعة فلا يوجد في وقتنا بلد يطبق شريعة الله لأن الخطب صعب والمشكل عويص والداء عضال وما دواءه إلا بإنشاء مجتمع إسلامي جديد يقوم على العقيدة الصحيحة كما قام في العصور الذهبية.

إن أحكام النظام الإسلامي لا تصلح ولا تطبق إلا في مجتمع إسلامي، إسلامي في نشأته وفي تركيبه العضوي وفي التزامه بشريعة الإسلام كاملة وكل مجتمع لا تتوافر فيه هذه المقومات كلها يعتبر "فراغا" بالقياس إلى ذلك الحكم، لا يملك أن يعيش فيه ولا يصلح له، فالعقيدة أساس والأحكام

بناء وهل يعقل بناء بلا أساس؟؟ ألا ترى لماذا لا يزكي الناس أنفسهم في المجتمع المسلم، ولا يرشحون أنفسهم للوظائف السامية ولا يقومون لأشخاصهم بدعاية ما كي يختاروا لمجلس الشورى أو الإمامة أو الإمارة؟؟؟

إن الناس في المجتمع المسلم لا يحتاجون لشيء من هذا لإبراز أفضليتهم وأحقيتهم... فهم يدركون حقيقة قوله تعالى:﴿ **فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى** ﴾(النجم/ 32). كما يدركون المناصب والوظائف في هذا المجتمع تكليف ثقيل لا يغري أحدا بالتزاحم عليه اللهم إلا ابتغاء الأجر بالنهوض بالواجب وللخدمة الشاقة ابتغاء رضوان الله تعالى. ومن ثم لا يسأل المناصب إلا المتهافتون عليها لحاجة في نفوسهم، وهؤلاء يجب أن يمنعوها امتثالا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال في حديث متفق عليه: «**إن والله لا نولي هذا العمل أحد سأله (أو حرص عليه)**». ولكن هذه الحقيقة لا تفهم إلا بمراجعة النشأة الطبيعية للمجتمع المسلم وإدراك طبيعة تكوينه، المجتمع الذي ظل ولا يزال وليد الحركة بالعقيدة الإسلامية الصحيحة.

القرآن الكريم وأثره في الإدارة الإسلامية

القرآن الكريم، دستور الحياة، خاتم الكتب السماوية، المعجزة الخالدة، أنزله الله على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلام ليبقى معجزة خالدة حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. ولئن كانت معجزات الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام تحس بالرؤية ومن بعدها بالتأمل وهي حوادث تقع ولا يبقى منها إلا الأخبار بها فلا تعرف على اليقين إلا لمن عاينها وذلك ما أخبر عنه القرآن كمعجزات موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام.

أما معجزة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام فلم تكن فقط من هذا النوع وإنما كانت أكبر من حادثة تقع وتزول من غير بقاء لها إلا بالخير والذكر، بل أصبحت خالدة باقية على مر الأجيال تخاطب العقول وتقرؤها الأبصار والبصائر على مر العصور.. وفي هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصحاح: " ما من نبي إلا أوتي ما مثله آمن به البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحي به إلي وإني لأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة". وهذا مرده كما قال العلامة الإمام أبو زهرة في كتابه "المعجزة الكبرى" أن رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خالدة ولكل البشر فلا بد أن تبقى معجزة خالدة تقرؤها وتراها وتحس بها كل الأجيال حتى قيام الساعة.

ولقد تحدى الله عزّ وجلّ العرب بأن يأتوا بمثله ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله ثم تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله وذلك إمعان في التحدي وتعجيز للعرب الذين نزل بلغتهم وهم المعروف عنهم الفصاحة والبلاغة.

ذلك القرآن المعجزة الخالدة على مر العصور حتى تقوم الساعة تحدث عن كل شيء وأحاط بكل شيء. تحدث عن العلم وحث عليه، تحدث عن البعث والحساب والعقاب تحدث عن الملائكة عليهم السلام وعن الأنبياء والمرسلين وقصصهم مع أقوامهم، تحدث عن الإنسان – الروح والجسد – تحدث عن الميراث والعلاقات الدولية والرق والأسر تحدث عن العقوبات والفرائض والعبادات، تحدث عن الحكومة ونوعها وصفاتها، تحدث عن الطبقات والمساواة، تحدث عن الإصلاح وبكل معانيه، تحدث عن كل شيء تحتاج إليه البشرية وترك الفروع والأمور التي تتطور مع الزمن.

معجزة خالدة تجسد فيها العديد من المعجزات، ففيه الإعجاز اللغوي وفيه الإعجاز العلمي وفيه الإعجاز التشريعي.. لقد بين القرآن الكريم أمور العقيدة الإسلامية بالتفصيل كما بين العديد من أمور الشريعة بالتفصيل كالميراث والمحرمات من النساء، وأجمل الباقي كالصلاة والزكاة وغيرها، وترك بيان ما أجمل للسنة النبوية المطهرة وترك بيان بعضها الآخر لظروف الناس التي تتغير حسب تغير زمان الناس وأحوالهم وأعرافهم.. ومن ذلك أمر القرآن الكريم بإقامة العدل بين الناس فقط وترك كيفية تلك الإقامة وكيفية القضاء لما يراه الناس أصلح من حيث إقامة المحاكم واختصاصاتُها وطرق التقاضي أمامها. والدليل على ذلك أنه لو نظرنا إلى مجال المعاملات لوجدنا أن الآيات التي تضمنتها لا تزيد عن مائتي آية من مجموع آيات القرآن الكريم وذلك سر إلهي لكي تبقى الشريعة الإسلامية مرنة وصالحة لكل زمان ومكان كما أراد لها الله سبحانه وتعالى.

ولهذا نرى أن مصادر التشريع في الإسلام تنقسم إلى نوعين: أحدهما المصادر الأصلية وهما القرآن ثم السنة وثانيهما المصادر التبعية أو الاجتهاد بالرأي وتشتمل على قول الصحابي والإجماع والقياس والمصالح المرسلة والاستصحاب وسد الذرائع.

والإدارة من الأمور التي أجمل الله سبحانه وتعالى الحديث عنها في القرآن وترك بيان الباقي للسنة النبوية ثم للاجتهاد فيما لم تبينه السنة رغم أنه حدد لها مهام ثابتة لا تحيد عنها وإلا فهي إدارة تعسف وفساد.. ومن هذه المهام نشر الدين الإسلامي بالحكمة والموعظة الحسنة وبالسيف عند

الضرورة دفاعا عن العقيدة وأهلها ودرءاً للاستبداد واستعباد خلق الله، ثم تنفيذ شريعة الله في أرضه قال تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ (الذاريات /56) ثم إدارة المرافق العامة في الدولة قال سبحانه: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾(البقرة /143) ثم تحقيق التنمية الإسلامية الشاملة.

فعلى ضوء هذا التوجيه الرباني، يجب على الدولة الإسلامية أن تكون وسطا كما أمر الله سبحانه وتعالى، تعطي للقطاع العام ما يجب أن تضطلع به وتعطي للقطاع الخاص ما يناسبه وتراعي في كل ذلك حاجيات العباد وظروف تطور البلاد وتقيم التوازن بين القطاعين بلا تفريط ولا إفراط.

إن التنمية وفي كافة مناحي الحياة اقتصادية أو اجتماعية أو غيرها أصبحت أمل كل الشعوب وهدف كل الحكومات، بما فيها حكومات الدول الإسلامية ولكن هذه الحكومات مطالبة بأن تجد لنفسها النمط التنموي الذي يتلاءم مع معتقداتها ومبادئ دينها الحنيف. وذلك بأن تأخذ عن الآخرين كما أخذوا عنها بالأمس في عنفوان شبابها، تأخذ عنهم ما تنمي به مصادرها الذاتية ولكن دون أن يخل هذا الأخذ ولا يمس جوهر ديننا الحنيف.. وعليه فالإدارة العامة في الدول الإسلامية والتي يوكل إليها النهوض بأعباء التنمية مطالبة بأن تعي ذلك وتعمل من خلال أمر الإسلام ونهيه، تأخذ ما يناسب وتترك ما لا يناسب.. مطالبة أن تأخذ عن الآخرين بقناعة وحذر وبصيرة.

وبطبيعة الحال، هناك العديد من المهام التي تدخل في كنف تلك المهام الرئيسية، وهذه المهام تختلف عن الوظائف، فوظائف الإدارة في نفسها وظائف الإدارة المعروفة ولكن بطابع إسلامي يتناسب مع نهج الإسلام ومبادئه السمحة. فالتخطيط مثلا لا بد أن يكون ذا صبغة إسلامية كوظيفة من وظائف الإدارة الإسلامية وكذلك التنظيم وكذلك القيادة وكذلك القرارات وما إلى ذلك ما لا يحصى عده.

يقول سبحانه وتعالى في سورة الفاتحة: ﴿ **الحمد لله رب العالمين الرحمان الرحيم ملك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾ (1-7) والمراد بالصراط المستقيم هو صراط المسلمين في عقيدتهم وشريعتهم وإدارتهم واقتصادهم ومجتمعهم، مستقيما في أدائه، مستقيما في سلوكه، مستقيما في نهجه، فهو غير صراط الضالين وهم النصارى وغير صراط المغضوب عليهم وهم اليهود. وفي موضع آخر من

القرآن الكريم، المعجزة الخالدة، يقول جل ذكره: ﴿**الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون** ﴾(البقرة /46) هذه إشارة لطيفة من رب العزة إلى أن المسلم في إدارته يخشى الله ويعلم أن الله يراقبه في عمله ويعلم أنه ملاقي ربّه وأنه راجع إليه.. وعلى ضوء ذلك يتصرف بأمانة وصدق وجدّ ومثابرة وهذا ما خلق لدى المسلم نوعا من الرقابة الذاتية مواضع عديدة نرى فيها ونلمس أثر القرآن الكريم في سمو الفكر الإداري الإسلامي وميزات الإدارة الإسلامية عمّا عداها من الإدارات التي تستند وتركز إلى نظم وضعية. يقول سبحانه وتعالى في سورة الأعراف: ﴿**يا بني أدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾(35).

اتق الله في كل عمل تقوم به وأصلح.. وأي شيء أروع من الإصلاح. الإصلاح في كل شأن من شؤون الدين والدنيا. كل إصلاح يتلاءم مع شريعة الله يدخل في نطاق هذا الإصلاح المأمور به ابن آدم. ويقول عزّ وجلّ: ﴿**وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين**﴾(الأنفال" /46) ماذا لو استمع المسلمون اليوم لهذا التوجيه الإسلامي الرباني الكريم وماذا لو فعلت الإدارات في الدول الإسلامية به؟ وعلى أي حال سيصبح وضع العالم الإسلامي وأحوال المسلمين؟

إننا وللأسف نحن المسلمين لم نتمسك بذلك، تنازعنا فذهبت ريحنا وأصبحنا مطمع كل مطامع ومحل تجارب واستيراد كل ما يرديه الغرب أو الشرق من فكرة واقتصاد وسياسة وإدارة وضياع وتمزق.

أي دين كالإسلام يحث على العمل للدنيا والآخرة، وأي دين يكرم العامل والعاملين ويعدهم بالجنة والفوز الكبير إن عملوا العمل الصالح ؟؟ وتأمل رحمك الله قوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام: ﴿ **قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون** ﴾(47)، تخطيط لعمري وضعه نبي الله يوسف عليه السلام بعد بلاء السجن الطويل، وضعه للدولة الفرعونية لتتجاوز الأزمة المقبلة إلهام رباني ليوسف عليه السلام تولى بعده يوسف الصديق مقاليد إدارة البلاد فقام بالتنظيم والإدارة على خير ما يرام وتجاوز بالبلاد شرور الأزمة الاقتصادية التي كانت تهدد البلاد.

وفي موضع آخر يقول عزّ وجلّ: ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعضكم لعلكم تذكرون وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون** ﴾(النحل – 91/90).

فالله يأمر بالعدل في الحكم ويأمر بالعدل في الإدارة وفي التوزيع وفي القضاء، يأمر بالعدل والإحسان وينهى عن كل منكر، والمنكر ما يتنافى مع الإسلام وروحه ويأمرنا أن نفي بالعهد إذا عاهدنا وينهانا عن نقض الإيمان.. فهذا سمو إداري لا تضاهيه أرقى وأحدث النظم الإدارية مهما بلغت من رقي وتقدم... وكم كان نقض العهود سببا في اندلاع حروب فتاكة بين دولتين أو شعبين كانا بالأمس كالجسد الواحد ...

يعلّمنا القرآن الكريم أن الكل مسؤول عن عمله، ﴿**فلا تزر وازرة وزر أخرى**﴾ ويأمرنا أن نتحاكم إلى الله ورسوله في منازعاتنا لا إلى الطاغوت قال سبحانه: ﴿**إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون**﴾(**النور /51**).. فما بالنا عن المسلمين اليوم، نتحاكم إلى أعداء الإنسانية ونرضى بما قرروه من أجلنا وما خططوه لنا، ونعتقد بسذاجة عقولنا أن الأحسن لنا ما استحسنوه والقبيح ما استقبحوه .. فأين اليقظة التي حثّ عليها رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم بقوله: " **لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين** " ؟.. وقد لدغنا مرات ومرات .. وما زلنا نلدغ إلى أن يأتي أمر الله !! إلى أن نكون رحماء بيننا وأشداء على أعدائنا، يُوقر فينا الكبير ويُرحم فينا الصغير ويُعلّم الجاهل ويُطعم الجائع ويُسقى الظمآن إلى أن نكون أمة شورى نتناصح ونقبل النصيحة، نقول ونفعل ولا نفعل إلا ما يرضي الله ورسوله نقوم بالله ولا نخاف في الحق لومة لائم ..

ذلكم هو نموذج رائع دائم خالد للإدارة والتي مهما تقدمت الإدارات الغربية فلن تسمو إلى مرتبة ما جاء به القرآن من نظم إدارية فريدة .. وليتنا نعي ذلك أبناء الإسلام !!

والله أسأل أن يوفقنا لصالح العمل ويجنبنا مزالق الزلل ويعافينا من جميع العلل آمــين

السنة النبوية المطهرة وأثرها في الإدارة الإسلامية

السنة النبوية المطهرة هي المصدر الرئيسي الثاني في تعداد مصادر التشريع الإسلامي والسنة لغة الطريقة، وشرعا تعني أقوال المصطفى صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته فتأتي مبيّنة لما ورد في القرآن الكريم من أحكام عامة تارة ولما لم يرد به نص قرآني تارة أخرى. وكونها مصدرا للتشريع يأتي التزاما لأمر الله تعالى حيث قال: ﴿**وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾(الحشر/7).

فهذه القاعدة، قاعدة تلّقي الشريعة من مصدر واحد، تمثل النظرية الدستورية الإسلامية، فسلطان القانون في الإسلام مستمد من أن هذا التشريع جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم قرآنا أو سنة. والأمة كلها والإمام معها لا تملك أن تخالف عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فإذا شرّعت ما يخالفه لم يكن لتشريعها سلطان لأنه فقد السند الأول الذي يستمد منه السلطان. وهذه النظرية تخالف جمع النظريات البشرية الوضعية، بما فيها تلك التي تجعل الأمة مصدر السلطات، بمعنى أن للأمة أن تشرع لنفسها ما تشاء، وكل ما تشرعه فهو ذو سلطان فمصدر السلطات في الإسلام هو شرع الله الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والأمة تقوم على هذه الشريعة وتحرسها وتنفذها، والإمام نائب عن الأمة في هذا. وفي هذا تنحصر حقوق الأمة. فليس لها أن تخالف عما آتاها الرسول عليه الصلاة والسلام في أي تشريع.

فأما حين لا توجد نصوص فيما جاء به الرسول بخصوص أمر يعرض للأمة، فسبيلها أن تشرع له بما لا يخالف أصلا من أصول ما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا لا ينقض تلك النظرية إنما هو فرع عنها. فالمرجع في أي تشريع هو أن يتبع ما جاء به الرسول إن كان هناك نص وألا يخالف أصلا من أصوله فيما لا نص فيه. وتنحصر سلطة الأمة والإمام النائب عنها في هذه الحدود. وهو نظام فريد لا يماثله نظام آخر مما عرفته البشرية من نظم وضعية. وهو نظام يربط التشريع للناس بناموس الكون كله. وينسق بين ناموس الكون الذي وضعه الله له والقانون الذي يحكم البشر وهو من الله، كي لا يصطدم قانون البشر بناموس الكون فيشقى الإنسان أو يتحطم أو تذهب جهوده أدراج الرياح !!

ولعلنا حين نتمعن في سنة النبي صلى الله عليه وسلم نجدها تعبر لنا عن سلوك إداري قويم تغنينا عن البحث عما سواه. ولقد شهد بذلك أعداء الإسلام أنفسُهم في كتاباتهم عن الرسول القائد الأعظم

صلى الله عليه وسلم ونحن إذ نتطرق لهذا الموضوع لم نقصد الحصر وإنما التدليل فقط على أثر هذه السنة العطرة في الإدارة الإسلامية.

أجل لقد كانت سيرته عليه الصلاة والسلام تعبر عن السمو في كل شيء. فلقد كان القائد والمعلم والمربي والزوج وكان الرئيس والإداري والاجتماعي وكان الأب والسيد المطاع وكان العابد وكان الرجل والعسكري والسياسي وكان الداعية إلى الله بالله وكان التاريخ الحافل بالمواقف والمآثر. ولعل ما يعنينا في صدد التدليل على أثر السنة النبوية المطهرة على الإدارة الإسلامية هو أقواله وأفعاله وتقريراته الإدارية وما يتعلق بها من حكم وسياسة وإدارة. يقول الأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد في حديثه عن محمد الرئيس ما نصه:" محمد الرئيس هو الصديق الأكبر لمرؤوسيه، مع استطاعته أن يعتزّ بكل ذريعة من ذرائع السلطان. فهناك الحكم بسلطان الدنيا. وهناك الحكم بسلطان الآخرة وهناك الحكم بسلطان الكفاءة والمهابة. وكل أولئك كان لمحمد الحق الأول فيه. كان له من سلطان الدنيا كل ما للأمير المطلق اليدين في رعاياه، وكان له من سلطان الآخرة كل ما للنبي الذي يعلم من الغيب ما ليس يعلم المحكومون. وكان له من سلطان الكفاءة والمهابة ما يعترف به أتباعه أكفأ كفء وأوقر مهيب. ولكنه لم يشأ إلا أن يكون الرئيس الأكبر بسلطان الصديق الأكبر، بسلطان الحب والرضى والاختيار فكان أكثر رجل مشاورة للرجال، وكان حب التابعين شرطا عنده من شروط الإمامة في الحكم بل في العبادة، فالإمام المكروه لا ترضى له صلاة. وكان يدين نفسه بما يدين به أصغر أتباعه ."

لقد برزت الإدارة الحديثة وبرز لها العديد من المبادئ والأسس والأساليب، والتي نجدها مفصلة في السيرة النبوية. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث متفق عليه ورواه ابن عمر رضي الله عنهما: « ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهي مسؤولة عنهم وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤول عنه. ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته». والإمام هو الخليفة أو الإمام أو الملك أو الرئيس أو الحاكم أو السلطان. ولقد حمل الرسول صلى الله عليه وسلم مسؤولية الحكم والسلطة على أساس عدل وتكافل وتكامل. وذلك لأنه أدرك قبل غيره أن واجب الحاكم هو قبل كل شيء رعاية شؤون الأمة.

ولقد كان يوحي بالرياسة حيثما وجد العمل الاجتماعي أو العمل المجتمع الذي يحتاج إلى تدبير، وكان يرسل الجيش وعليه أمير وخليفة أمير وخليفة لخليفة أمير. وفي هذا الصدد يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث رواه أبو داود عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما: « إذا خرج ثلاثة في سفر فيأمّروا عليهم أحدَهم » وفي رواية أخرى:« لا يحق لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمّروا عليهم أحدهم ». وفي رواية لمسلم قال عليه الصلاة والسلام: « من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمِيتَته جاهلية» وقال أيضا : « من مات وليس في عنقه بيعة فقد مات ميتة جاهلية » وبلفظ آخر قال صلى الله عليه وسلم: « من نزع يده من طاعة إمامه فإنه يأتي يوم القيامة ولا حجة له » ويقول في شأن عدل الحاكم في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: « سبعة يظلّهم الله بظلّه يوم القيامة منهم إمام عادل » .وفي حديث آخر من رواية ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « ثلاثة لا ترد دعوتهم، منهم الأمير العادل » .

ولقد كان قوام الرئاسة والإمامة عند الرسول صلى الله عليه وسلم شرطان هما جماع الشروط في كل رئاسة وهما: الكفاءة والحب ولهذا يقول صلى الله عليه وسلم في حديث أخرجه أبو داود والترمذي: « أيما رجل استعمل رجلا على عشرة أنفس علم أن في العشرة أفضل ممن استعمل فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين ». وقال أيضا عليه الصلاة والسلام في حديث أخرجه ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: « أيما رجل أمّ قوما وهم له كارهون لم تجز صلاته أذنيه ». وإن في ذلك لإقرارا لمبدأ النظام والترتيب أو ما يسمى " بالشخص المناسب في المكان المناسب" وهو من مبادئ الإدارة الحديثة التي وضعها " هنري فايول". وإقرارا لمبدأ المساواة والعدل يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي أخرجه أبو داود والترمذي من طريق أبي مريم الأزدي: « من ولاه الله من أمر المسلمين شيئا فاحتجب عن حاجتهم احتجب الله عنه يوم القيامة » وإقرارا كذلك لخاصية من خواص الإدارة الإسلامية كإدارة ذات كفاءة وجدارة وأخلاق يقول عليه الصلاة والسلام في حديث لأبو يعلى والعسكري وغيرهما عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : «إن الله يحب من العبد إذا عمل عملا أن يتقنه » ويقول في حديث رواه الشيخان عن أبي جحيفة رضي الله عنه: «إن لنفسك عليك حقا وإن لبدنك عليك حقا» وفي حديث أخرجه أبو داود قال عليه الصلاة والسلام عن أرزاق العمل: « من كان لنا عاملا ولم يكن له سكن فليتخذ مسكنا ولم يكن له زوج فليتخذ زوجا ومن لم يجد خادما فليتخذ خادما ومن لم يجد دابة فليتخذ دابة ومن اتخذ

غير ذلك فهو غال أو سارق ». وذلك تحقيقا لكون الإدارة الإسلامية إدارة تهتم بالحاجات النفسية والروحية والمادية للإنسان. ولتحقيق خاصية أخرى للإدارة الإسلامية ، يقول عليه الصلاة والسلام : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية» (متفق عليه) وفي حديث أخرجه البيهقي وأحمد والحاكم قال عليه الصلاة والسلام: « من أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني» وفي هذا جماع للضوابط التي تقوم عليها الإدارة الإسلامية التي تمتاز بكونها إدارة ذات مسؤولية رعوية وسلطة مطاعة و ذات علاقة حب ورقابة ذاتية بين الآمر والمأمور إضافة إلى العدل والإنصاف والمساواة والرحمة والبر بين الناس يقول عليه الصلاة والسلام في حديث أخرجه أحمد و أبو يعلى عن أنس بن مالك رضي الله عنه: « اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرا فإنها ليس دونها حجاب » ويقول أيضا في حديث أخرجه أبو داود : « من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا » . ويقول أيضا عن الرفق في الأمور وعدم التعسير: « إن الله لم يبعثني معنّتا ولا متعنّتا ولكن بعثني معلما وميسرا». وفي رواية أخرى للشيخين قال عليه الصلاة والسلام: « يسّروا ولا تعسّروا وبشروا ولا تنفروا وسددوا وقاربوا».

من هذا نرى جليا أن الإسلام بجانب اهتمامه بإيجاد نظام الكفاءة والجدارة وسبقه العالم في ذلك، يهتم أيضا بأخلاقيات العامل المسلم ويعتبر الأمانة الركن الثاني في إسناد التكليف إلى الأفراد، كما يربط بين الإنسان كعنصر منتج في العمل وبين سلوكه وبيئته الإسلامية.

إن هذا الارتباط بين المنظمة الإدارية وتلك العقيدة هو الذي جعل الإدارة الإسلامية ومنظماتها الإدارية فذة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعهد الخلفاء الراشدين وعندما بدأ هذا الارتباط يتقوض بدأت الإدارة ومنظماتها في الدول الإسلامية تسير القهقرى حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن من انحطاط وانحلال... ألم يان لأمتنا المجيدة أن تنهض من سباتها العميق وتسترجع هذا الارتباط الذي يجعل من المسلم العامل الذي يرعى الله ويخافه في كل عمل يؤدّيه لنفسه وأهله وأمته ولا يخاف سواه؟؟؟ اللهم احمينا من كل فتنة ومن كل سوء آمين.

دعوة الإسلام الحنيف الى احترام العمران وعدم الفساد

قامت قبل الإسلام أمم توفرت لها جميع أسباب القوة، فراحت توالي الفتوح إلى كل جهة، طلبا للتوسع في الملك والتضخم في الثروة فكانت الطريقة التي تتبعها هي ما تمليها عليها القوة الغاشمة

لا أصول العدالة. فكانت تستولي على المدن فتدك عمرانها، وتسلب أموالها، وتستذل أهلها وتولي عليها من يسومهم الذل والظلم.

كما تستذل الآن هنا وهناك الامبريالية العالمية والصهيونية الماكرة أبناء ملتنا في الشيشان والبوسنة وفلسطين وغيرها.. نعم تستذل المستضعفين من المؤمنين على مرأى ومسمع من الدول العظمى التي تدافع عن حقوق الانسان حسب زعمها وتسعى إلى نشر السلام والمحبة بين الناس.. فعن أي سلام تدافع؟ فعن سلام أبنائها الغزاة الغاصبين تدافع و لأجلهم تقاتل و تهاجم، تقتل الأبرياء فتحكم عليهم بالإجرام وعلى أبنائها بالبراءة هذه هي سنة الغزاة في كل عصر ومصر.. وقد أحسنت إيجازها ملكة سبأ بقولها كما حكى عنها القرآن الكريم في سورة النمل: ﴿**إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون**﴾(34) فهي تعرف أن من طبيعة الملوك أنهم إذا دخلوا مدينة كبيرة أشاعوا فيها الفساد وأباحوا ذِمارها وانتهكوا حرماتها وحطموا القوة المدافعة عنها وعلى رأسها رؤساؤها وجعلوهم أذلة لأنهم عنصر المقاومة وأن هذا هو دأبهم الذي يفعلونه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين... وإقامة الدليل على ذلك من التاريخ ميسور فهو حافل بالفظائع التي ارتكبت في كل عصر من أكثر أمم المعمورة .

أما الإسلام فنراه قد حذّر من الفساد في عبارات قرآنية مؤثرة وألوان من البيان فاقتلع جذور هذه الرذيلة من قلوب أهله، وأحلّ محلّها إنسانية لا تعدو عليها الاعتبارات العدائية.

وانظر كيف اعتبر الفساد في الأرض من الجنايات الاجتماعية وحذر منه في آيات كثيرة. قال جلّ علاه تشنيعا على المفسدين: ﴿**ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام. وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد**﴾(البقرة/204-206).

هذا المخلوق الذي يتحدث فيصور لك نفسه خلاصة من الخير ومن الإخلاص ومن التجرد ومن الحب ومن الترفع ومن الرغبة في إفاضة الخير والبر والسعادة والطهارة على الناس... هذا الذي يعجبك حديثه، تعجبك ذلاقة لسانه وتعجبك نبرة صوته ، ويعجبك حديثه عن الخير والبر والصلاح ﴿**ويشهد الله على ما في قلبه**﴾ زيادة في التأثير والإيحاء، وتوكيدا للتجرد والإخلاص، وإظهارا للتقوى وخشية

الله ﴿ **وهو ألد الخصام** ﴾ تزدحم نفسه باللّذذ والخصومة، فلا ظل فيها للود والسماحة ولا موضع فيها للحب والخير ولا للرفق والعفو ولا مكان فيها للجود والتجمل والإيثار ولا للتواضع والتضحية.. هذا الذي يتناقض ظاهره وباطنه ويتنافر مظهره ومخبره، هذا الذي يتقن الكذب والتمويه والدهان، حتى إذا جاء دور العمل ظهر المخبوء وانكشف المستور وفضح بما فيه من حقيقة الشر والبغي والحقد الفساد.. وإذا تولى فقصد إلى الإفساد في الأرض وأهلك الحرث والنسل ونشر الخراب والدمار وأخرج ما يعتمل في صدره من الحقد والضغن والشر والفساد... إذا فعل كل هذا ثم ﴿ **قيل له اتق الله** ﴾ تذكيرا له بخشية الله والحياء منه والتحرج من غضبه أنكر أن يقال له هذا القول.. واستكبر أن يوجَّه إلى التقوى وتعاظم أن يؤخذ عليه خطأ وأن يوجه إلى صواب كأنه داعية معصوم من الزلل وأخذته العزة بالإثم.. فاستعز بالإجرام والذنب والخطيئة ورفع رأسه في وجه الحق الذي يُذكَّر به وأمام الله بلا حياء منه وهو الذي كان من قبل يشهد الله على ما في قلبه ويتظاهر بالخير والبر والإخلاص والتجرد والاستحياء...

ولقد حذر الله تعالى المسلمين من معاملة الشعوب بالقسوة والجبروت وتخريب العامر من مدنهم لأن هذه تفضي بهم إلى عدم النجاح في شؤونهم الخاصة، ويعرف الذين درسوا تاريخ العصور الماضية أن الأمم أكثر ما أتاها الانحلال من الشعوب التي كانت في حوزتها و التي سامتها سوء العذاب..

ومما شدد الله التحذير منه هو إفساد ما تم إصلاحه في العالم قال جل ذكره في سورة الأعراف: ﴿ **ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ (56) وزاد تنبيهه بعدم الفساد في الأرض قوة بأن جعل النجاة في الآخرة وقفا على المتأدبين بهذه الآداب الإلهية، قال تعالى في سورة القصص: ﴿**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين**﴾(83)، الذين لا يقوم في نفوسهم خاطر الاستعلاء بأنفسهم لأنفسهم، ولا يهجس في قلوبهم الاعتزاز بذواتهم والاعتزاز بأشخاصهم وما يتعلق بها، إنما يتوارى شعورهم بأنفسهم يملأها الشعور بالله ومنهجه في الحياة، أولئك الذين لا يقيمون لهذه الأرض وأشيائها وأعراضها وقيمها وموازينها حسابا ولا يبغون فيها كذلك فسادا.

وإذا كان الإسلام قرر مبدأ الشورى فنراه من جهة أخرى أوجب أن يكون في الدولة الإسلامية جماعة من أولي الحل والعقد يمثلون الأمة وينوبون عنها ويراقبون سياستها ونظم حكمها وهذه

الجماعة هي التي قال عنها أصدق القائلين سبحانه في سورة آل عمران: ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾(104) فلابد من سلطة تأمر وتنهى سلطة تقوم على الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر سلطة تتجمع وحداتها وترتبط بحبل الله وحبل الأخوة في الله، سلطة تقوم على هاتين الركيزتين مجتمعتين لتحقيق منهج الله في حياة البشر.. فمنهج الله في الأرض ليس مجرد وعظ وإرشاد وبيان فهذا شطر، أما الشطر الآخر فهو القيام بسلطة الأمر والنهي على تحقيق المعروف ونفي المنكر من الحياة البشرية وصيانة تقاليد الجماعة الخيرة من أن يعبث بها كل ذي هوى وكل ذي شهوة وكل ذي مصلحة، وضمانة هذه التقاليد الصالحة من أن يقول فيها كل امرئ برأيه وبتصوره زاعما أن هذا هو الخير والمعروف والصواب.

وهكذا قامت الجماعة المسلمة الأولى في المدينة المنورة على هاتين الركيزتين المقدستين، وبلغت تلك الجماعة في ذلك كله مبلغا لولا أنه وقع لعُد من أحلام الحالمين، وقصة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قصة من عالم الحقيقة ولكنها في طبيعتها أقرب إلى الرؤى الحالمة وهي كما قال عنها الإمام الشهيد سيد قطب رحمه الله: قصة وقعت في هذه الأرض ولكنها من طبيعتها من عالم الخلد والجنان"... وعلى مثل ذلك الإيمان ومثل هذه الأخوة يقوم منهج الله في الأرض في كل زمان، اللهم ألهمنا كما ألهمتهم واحشرنا في زمرتهم آمين.